حديقة السوسن

(تابع لما قبل)

— ٨ —

لقد اجمع علمآء الارخيولوجيا[١] على ان الانسان عاش الوفاً من السنين على هذه الارض وهو في حالتهِ الفطرية الاولى اي قبل ان ينتقل الى دور الحضارة . يأكل عند ما يتيسر لهُ القوت لا عند ما يجوع ويشرب حينما يصيب مآءً لا متى ادركهُ الظمأ ولا ملبسَ لهُ الا ما على بشرتهِ من الزغب والشعر او ما طلى بهِ بدنهُ من طينٍ[٢] ولا مأوى لهُ الا ما في الاودية والجبال من وجار وكهف

تلك ازمنةٌ لم يقل فيها الرجل ان شطرهُ الطبيعيّ (اي المرأة) محتالٌ

---

(١) علمٌ يبحث عن حالة الانسان في ادوارهِ الاولى الطبيعية . اي قبل العصر التاريخي

(٢) قد ثبت علماً ان الانسان بعد ان عاش زماناً وهو عارٍ اهتدى الى طلي بدنهِ بالوحول اتقآء لذع البعوض وامثالهِ من الهوامّ وسدّ مسامّ الجسم حتى لا يشتدّ عليهِ تأثير البرد القارس والحر الصاهر . ثم لما اهتدى الى الصيد ابدل الطلي بلبس جلود الوحوش التي اصبح قادراً على اقتناصها . ثم نسج صوفها واكتسى بهِ بعد ان فُتح عليهِ فتبين طريقة الغزل والنسج ثم نسج الياف النبات واشتمل بها اشتمالاً . ثم اكتشفت ملكةٌ في الصين خاصية دود القز واساليب تربيتهِ والاستفادة من حريرهِ وذلك في شمالي بلاد الصين منذ اكثر من خمسين قرناً اي من قبل عهد الملك فوهي الذي كان قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة . ثم اهتدى الى الخياطة فابدل الاشتمال والتردّي بتفصيل ما شآء على ما يشآء ومن هنا نشأ التفنن في الازيآء الذي ابى ان يستقرّ على حالٍ ما دامت الارض والسمآء

طبعاً مكارٌ غريزةً غدورٌ فطرةً لانهُ لم يكن اذ ذاك اقوى ادبيًّا من المرأة ولا هي اضعف منهُ بل كان كلاهما في حالةٍ واحدة يسعيان معاً ورآء الرزق فيصيبانهِ من جذور النبات والبقول واثمار الاشجار البرية شأن الوحوش النافرة في عرض القفر حتى هذا اليوم . لا بيت للرجل يختص به فيحتبس المرأة فيهِ ولا عروض في الدنيا ولا نقود مسكوكة ليستبدّ بها دونها . وما من سلاحٍ في الارض ليتقلده غازياً ومدافعاً فيسكرهُ غرور المجد الناشئ عن القوة والمؤدّي الى الغطرسة والعسف . وما من عسكر ليكون لهُ قائداً يكتسح بهِ البلاد ويفتتح الحصون ثم يعود ظافراً بالغنائم. ولا مملكة فيمسي عليها سلطاناً يأمر وينهى ويعزل ويولي فيقول للمرأة « انا ربّكِ الاعلى فاعبديني » . بل كان نوع الانسان يعيش قطعاناً وربارب كالايائل والظباء مقصورةً حياتهُ على بسائط الحاجيات يأكل مما تنبت الارض ويشرب مما تمطر السماء وتنبع العيون ويمتّع حواسهُ بزخرف الطبيعة الزاهي بساطهُ التراب وظلالهُ الكهف والغاب وسلاحهُ الظفر والناب

تلك أزمنة كان فيها الزواج مشاعاً لا قاعدة لهُ يجري عليها ولا قانون يُعمَل بمقتضاهُ لان الشرائع لم تكن وُجدت بعد . وكان كل فردٍ من النوع الانساني حاكماً ذاتهُ مستقلاً بشؤونهِ متولياً امور نفسهِ بنفسهِ يدبر بارادتهِ الساذجة حركاتهِ وسكناتهِ لا سائد بين الافراد ولا مسود ولا غنيٌّ ولا فقير ولا يمتاز آحاد النوع عن سائره الاّ بما خصّت الطبيعة بعضهم دون بعضٍ من بسطة الجسم وتوفّر القوى

ذلك عصرٌ لم تكن فيهِ المرأة موصوفةً بالغدر والمكر والاحتيال كما

زعم الرجل التاريخي بل كان اسلافهُ يحسبونها الرفيق الانيس والاليف الوفيّ والحبيب الكثير الحنان . هكذا عاش الانسان منذ الدور الجيولوجي الثالث حتى زمان الاجتماع ودور العمران ولم يمرّ على مخيّلتهِ وقتاً من الاوقات تصوُّر نسبة هذه الاخلاق الذميمة الى المرأة الاّ بعد ان انفرد عنها ببعض المصالح واستبدَّ دونها بامور وأحوال أدّت الى امتهانها وعزّهِ وتحقيرها وعظمتهِ وتقييد ارادتها خدمةً لاغراضهِ . ولو تأمل قليلاً لعلم انهُ زائغٌ عن الصواب اذ المسبَّبات ناشئة عن الاسباب لا عن الطبيعة ومتى زالت العلة اندفع المعلول

هذا كلامٌ لا بدَّ ان يأتي غريباً على اسماع البعض وتعليلٌ ما تعوّد مواطنونا امثالهُ ولكنهم بقليلٍ من التروي العادل يحكمون بان ورآءهُ حقيقة واضحة لا مريةَ فيها ولا جدال ويتعجبون من بقآئها محجوبةً عن بصائرهم كل هذه العصور وعند كثيرٍ من الاجيال

لا مشاحّة ان الذين زعموا ان المرأة جُبلت على اللؤم فطرةً قد اساءوا الى المُبدع تعالى اسمهُ وغضّوا من شأنهِ لان البارئ تنزهت حكمتهُ أجلّ واحكم من ان يسلّط على الارض وما عليها صنفاً من المخلوقات احد جنسيهِ صالحٌ والآخر شرّير مع انهما من جهة التمثال اكفآء ومن حيث التكليف سوآء . هذا اذا كانوا يدينون بدينٍ كجميع اهل الكتاب وغيرهم ممن يقولون « ان ورآء المادّة قوةً عاقلة تُحدث مبتدعاتها وتجري أحكامها بترتيب وإتقان » واما ان كانوا مادّيين معطلين او دهريين فقد بخسوا الطبيعة حقها ايضاً لان الانسان جُبل شطراهُ من طينةٍ واحدة وأعطي لكلٍ

منهما من الحواسّ الظاهرة والباطنة ما اعطي للآخر . وعلى هذا نقول ان ليس لهذا الرأْي الأَفين من مصدر الاّ الغباوة والغرور مبعث الآفات والشرور

ولقائلٍ ان يقول كيف رسخ إذنْ هذا الاعتقاد على فسادهِ الواضح ألوفاً من الاعوام في اذهان البشر ولم تتنبّه لفسادهِ العقول مع ظهور أفرادٍ من أعلام الرجال على تعاقب العصور والاجيال قد اشتهروا بسموّ المدارك وسداد الآراء حتى عدهم التاريخ أقطاباً وهداة

فالجواب ان هذا الاعتقاد لم يكن الوحيد باستقرارهِ في ادمغة الناس متوارثاً خلفاً عن سلفٍ مع مخالفتهِ للحقيقة بل يوجد مثلهُ كثير لم تستفق التصوُّرات ولم تتنبه المخيلات لما فيهِ من الخلل والفساد ومخالفة السداد . والسبب في ذلك ان عامة الناس قد اخضعوا عقولهم منذ البدء للاوهام الناشئة إما عن الجهل واما عن القوانين والاحكام الموضوعة من ذوي السلطات تبعاً لاغراضهم واهوآئهم فاصبحت هذه الاوهام مع تمادي الازمنة الطوال وبقوة المتسلطين الحاملين الرعية على احترامها كانها احكام مسلمة يرسمها الوالدون في مخيلات اولادهم منذ الفطام و يتناولها الخلف عن السلف بالتسلسل والتعاقب كأنها وحيٌ من الآلهة لا يحق للعقل ان يتصرف فيها تحليلاً وتخريجاً ليمحصها و يتدبّرها و يميز صحيحها من فاسدها فينشأ الغلام وتلك الاوهام مبجّنة في دماغهِ باصبعٍ من حديد . وهو محظورٌ عليهِ بحكم التربية والقدوة والتقليد ان يستخدم قواهُ المتصرفة في تكييفها وتعليلها فتثبت معهُ على علاتها مدى الحياة . وهكذا يسلمها الى

اولادهِ ثم اولادهُ الى احفادهم دون بحثٍ ولا استنتاج . ولولا ذلك لما بقي المصريون مع بلوغهم الشأو البعيد من الحضارة والحكمة والعرفان يعبدون العجل (آبيس) وافاعي الصعيد وسنانير السودان وغيرها من سائر الحيوان الوفاً من السنين ولما لبث مئات الملايين من البراهمة والبوذيين حتى اليوم يكرمون نهر القنج تكرمة معبودٍ ويطأطئون رؤوسهم لمنحوتاتٍ وتماثيل هي عمل ايديهم . ولما عبد قومٌ من العرب صنماً معمولاً من العجوة يأكلونهُ عند ما يجوعون ثم يصنعون غيرهُ حين يشآءون للعبادة . ولما بقيت العرافة من السحر والكهانة والتنجيم راسخة في عقول كل الامم الغابرة و بعض الحاضرة كأنها حقائق دينية مع كونها واضحة السخف ظاهرة البطلان . ولما دام بنو الانسان يقولون بدوران الشمس وثبوت الارض دهوراً متطاولة حتى قام في الزمن الاخير من قال بالعكس الذي هو عين الحقيقة ولباب الصواب فذهب شهيد قولهِ اوكاد . أفليس حتى اليوم من يتقرب بالذبائح البشرية للمعبودات ويقتل مع الميت زوجاتهِ وخادماتهِ وخيولهُ اعتقادَ انهُ يتمتع بهنَّ في الابدية كما كان يتمتع هنا . وماذا عسانا ان نعدّد من امثال هذه الامور

هذا لعمرك سرُّ بقآء كثير من المزاعم والأَوهام والأَضاليل سائداً على مدارك الانسان احقاباً متطاولة دون ان يقوى العقل على هتك حجابها وتمزيق جلبابها . ولك بما لا يزال راسخاً في اذهان عامتنا حتى اليوم من حوادث الجن والتابعة والعفريت والقرينة والعين الصائبة وغيرها من الترهات والخرافات انصع برهان واوضح دليل (ستأتي البقية) .